د. محمد شوقي الزين

الفلسفة واليومي

الحصة الخامسة

سؤال اليومي عند هنري لوفيفر:
مشروع رؤية نقدية للحياة اليومية

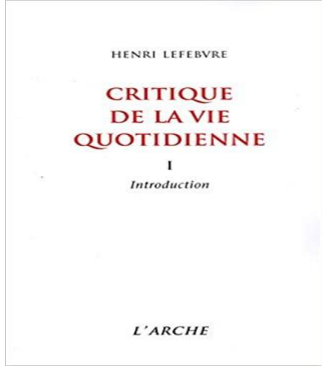

مَشْرُوع نَقْد الحَيَاة اليَوْمِيَّة

- المشروع الضخم لهنري لوفيفر (1901-1991) هو «نقد الحياة اليومية». الذي يتوزَّع في ثلاثة أجزاء: 1. الجزء الأول: «نقد الحياة اليومية» (1947)، 2. الجزء الثاني: «مبادئ في سوسيولوجيا اليومية» (1961)، 3. الجزء الثالث: «من الحداثة إلى التحديث: من أجل فلسفة شارحة لليومي» (1981)، بالإضافة إلى جزء آخر مستقل عنوانه: «الحياة اليومية في العالم الحديث» (1968). جاء شعار هذا المشروع: **«سيكون الإنسان يومياً أو لا يكون».**
- المرجعيات الصريحة لبلورة نقد الحياة اليومية كانت تتلخَّص في الماركسية التي أخذ عنها لوفيفر فكرة «الاستلاب» أو «الاغتراب» (aliénation) قبل أن يُعيد الاشتغال عليها وأقلمتها حسب الحاجة الفكرية.
- استعمال مفهوم الاستلاب أو الاغتراب من شأنه أن يُبيّن العوائق التي تعترض الإنسان في اكتماله البشري، كأن ينغمس في ضروريات العمل وينقطع عن الواقع.

اليَوْمي في تَصَوُّر لُوفِيفْر

- كيف يُعرّف لوفيفر اليومي؟ يقول في الجزء الثالث من «نقد الحياة اليومية»: **«يدل "اليومي" على مُجمل الأفعال اليومية التي تتسلسل وتُشكّل وحدة متكاملة. نؤكّد بأن اليومي لا يُختزَل في مجموعة من الأفعال المنعزلة مثل الأكل والشرب واللباس والنوم، إلخ».**

- H. Lefebvre, *Critique de la vie quotidienne*, III, p. 8.

- اليومي هو وحدة متكاملة ومنسجمة من الأفعال والممارسات، ولا يُمكن تمثُّله أفعالاً منعزلة ومشتَّتة. هناك وحدة معنوية تُدبّر حياة الإنسان يُدرك بموجبها معقولية الأفعال التي يُنجزها.

- يشير لوفيفر إلى عزوف الفلسفة عن اليومي الذي طبع تاريخها وتيَّاراتها الفكرية ويُشير إلى الأهمية التي بدأت الفلسفة توليها لليومي تحت وطأة الواقع المتنامي والمتحوّل. ما تهدف إليه الفلسفة هو أن تتجدَّد بمباحثها وأطرها النظرية عبر الاهتمام باليومي. إنه السبيل الوحيد، حسب لوفيفر، لتتفادى الانحسار والأفول.

حَرَكَة اليَوْمي

- عندما يُحدّد لوفيفر اليومي، فهو يضعه في ثلاثية تُحدّد طبيعته ونمط اشتغاله وهي «**الحاجة-الرغبة-المتعة**». ينتظم اليومي وفق هذه المعطيات الموضوعية والذاتية في الشعور بالحاجة إلى أمرٍ ما (مثلاً الأكل أو النوم) ثم الرغبة في اقتناء شيء (السكن أو الأجهزة) وأخيراً التمتُّع بهذه المقتنيات تحقيقاً أو إنجازاً لفاعلية الاستعمال والتبادل.
- الأمر البارز عند لوفيفر في تحديده لطبيعة اليومي وطريقة اشتغاله، هو توكيده على بُعد الحركة، لأن اليومي الذي تتَّخذه الفلسفة موضوعاً لها، ليس ثابتاً مثل المادَّة العُضوية في المخبر العلمي التي يسهل التجريب عليها واستخلاص قوانين فيزيائية أو حيوية تُدبّرها، بل اليومي لا ينقطع عن التحوُّل والارتقاء.
- اليومي هو نقطة انطلاق الفعل، والفعل حركي في طبيعته وعفوي في مساره وسلوكه، لا يمكن القبض عليه، سوى ملاحظته ووصفه.
- من شأن اليومي الذي يتميَّز بالحركة والفاعلية أن يدفع الإنسان إلى أن يتغيَّر في ذاته. جوهر اليومي هو إرادة التغيير، ويكون لوفيفر قد استثمر الأطروحة الحادية عشر من أطروحات حول فيورباخ، يقول فيها ماركس: «**إن الفلاسفة قاموا بتأويل العالم بطرق مختلفة، وما يهمُّ هو تحويله**».

المقَارَبَة العَادِيَة والمقَارَبَة التِقْنِيَّة لليَوْمي

- لا يُجدي نفعاً، حسب لوفيفر، مقاربة اليومي في لغة معجمية معقَّدة، لأن هذه اللغة التقنية لن تساير اليومي في تحوُّله وارتقائه. يتطلَّب الأمر استعمال اللغة العادية الحيَّة التي تتحوَّل مع اليومي نفسه عبر ما يُسمّيه «**إيضاح الضمني**».
- المعرفة النقدية للحياة اليومية ليست معرفة تقنية تعتمد على الجداول والنماذج المجرَّدة، فهي ليست معرفة «ابستمولوجية» همُّها ترجمة العادي في العلمي، أو قراءة الواقع الحيّ بوصفه رموزاً ومعادلاتٍ، بل هي معرفة «نقدية» تكشف في اليومي عن نمط خاص من السلوك والتعقُّل وتنفض عن هذا اليومي الاستلاب والإرادة الإيديولوجية، بمعنى كل الخطابات التي تساهم في بلورة الوعي الزائف وتحجب الواقع بألف قناع من التمويه والتضليل.
- غرض هذه المعرفة النقدية للحياة اليومية هو بلوغ اليومي في ماهيته القائمة على التحوُّل والانتباه الحصيف لما يعتمل فيه من تجارب حيَّة ومصادفات وإمكانات. يقول: «**هل مفهوم "اليومي" إجرائي أم لا؟ نعم، لأنه يتيح تحليلاً نقدياً "للواقع". لا، لأنه لا يُنتج شيئاً آخر سوى اقتراحٍ سلبي يقوم على إمكانٍ واحدٍ: "تغيير الحياة"**».

- H. Lefebvre, *Critique de la vie quotidienne*, III, p. 27.

الاسْتِرَاتِيجي والتَكْتِيكي في اليَوْمي

- ماذا يقصد لوفيفر بهاتين الكلمتين؟ نعرف أن الاستراتيجية والتكتيكية تنتميان إلى مجال الحرب، حيث الاستراتيجية هي التخطيط المسبق للمعركة مع الأخذ بعين الاعتبار المصادفات الحاصلة وقت المعركة بالتهيُّؤ لها سابقاً، والتكتيكية هي التعامُل مع هذه المصادفات عندما يحين وقت المعركة.
- يقول لوفيفر: يقول لوفيفر: «**كل الفئات الاجتماعية، على الصعيد "الميكرو" (micro) و"الماكرو" (macro) لها تكتيكية واستراتيجية، واعية أم غيرواعية، ضمنية أم مصرَّح بها**».

- H. Lefebvre, *Critique de la vie quotidienne*, II, p. 137.

- جاء استعمال ثنائية الاستراتيجية والتكتيكية من حيث أن حياة الأفراد مفتوحة على الإمكانات والمصادفات. ما يقومون به هو التخطيط لحياتهم وفق «استدلال عملي» ينطلق من مقدِّمات ويبتغي نتائج مروراً باختيار الوسائل المؤدِّية إلى الغاية.
- بين الاستراتيجية أو مرحلة التخطيط والتكتيكية أو مرحلة الارتجال، هناك فارق أو بَوْن، بحكم أن ما يُخطَّط لا ينتهي دائماً بالإنجاز، بل ينبغي أحياناً التعديل في الفعل وفق استراتيجيات جديدة.

اليَوْمي واليَوْميَّة

- بينما أزمنة التكتيكية حسب نظره هي أزمنة الاعتيادي والسقوط في الابتذال. الفرق بين الاستراتيجية والتكتيكية هو الوجه الآخر للتمييز الذي يضعه بين «اليومي» (quotidien) و«اليومية» (quotidienneté).
- اليومية التي ترادف عنده التكتيكية، «يُهيمن عليها الابتذال (le trivial)»؛ واليومي الذي يرادف الاستراتيجية، يتميَّز بالقُدرة على القرار وصناعة التاريخ وإحداث التحوُّل.
- يُبرز التكتيكي إذن الطابع الملتبس لليومي، كونه يخضع للحركة السريعة وللزمن المتسارع. أحسن مثال تتجسَّد فيه التكتيكية هو «اللعبة». تتميَّز اللعبة بالحركة العفوية والارتجالية (مثلاً: كرة القدم)، لكن رغم ذلك، فهي تخضع إلى قواعد استراتيجية هي مُجمل السلوكيات الواجب اتّباعُها لضمان السير الحسن للعبة.
- للفرد الانطباع بأن الحياة اليومية تتكرَّر بالقيام بالأفعال نفسها، من نهوضه في الصباح إلى نومه في الليل، مروراً بمجمل النشاطات التي يزاولها طيلة النهار. هذا الانطباع بالتكرار والابتذال هو ما يُسمَّى بـ«اليومانية». غير أن اليوم لا يُشبه الأمس ولا يُشبه الغد، هناك دائماً إمكانات تتفتَّق وأفعال تُبتَكَر، مما يُعطي الانطباع بأن الحياة تتجدَّد ولا تبقى في مجال الرتابة. هذا الانطباع بالتجدُّد وبأن الفرد كل يوم هو في شأن هو ما يُسمَّى بـ«اليومي».